فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لمَا بعد الموت ، وكأنهم يشكُّون فى أنه قادم ، وجاء لهم بخبر الموت كأمر حتمىّ ، وسبقتْه (هو) لتؤكد أنه سوف يحدث ، فالحشر منسوب لله سبحانه ، وهو قادر عليه ، كما قدر على الإحياء من عدم ، فلا وَجْهَ للشك أو الإنكار .

ثم جاء لهم بخبر البعث الذى يشكُّون فيه ؛ وهو أمر سبق وأنْ ساق عليه سبحانه الأدلة الواضحة .

ولذلك جاء بالخبر المصحوب بضمير الفصل :

﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر]

وسبحانه يُجرى الأمور كلها بحكمة واقتدار ، فهو العليم بما تتطلبه الحكمة علْماً يحيط بكل الزوايا والجهات .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ(1) مَّسْنُونٍ(2) ﴿٢٦﴾ ﴾

وسبحانه يتكلّم هنا عن خَلْق الإنسان من بعد أن تكلَّم عن خَلْق الكون وما أعدَّه له فيه ، وليستقبل الكون الخليفةَ لله ؛ فيوضح أنه قد خلقه من الصَّلصال ، وهو الطين اليابس .

وجاء سبحانه بخبر الخَلْق فى هذه السورة التى تضمنت خبر

---

(١) الحمأ والحَمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى ، أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل [القاموس القويم ١/٣٣١] .

(٢) نار السموم : النار الحارة التى تقتل . وقال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٧٤٦] .

مَدِّ الأرض ؛ ومَجِيء الرياح ، وكيفية إنزال الماء من السماء ؛ وكيف قَدَّر فى الأرض الرزق ، وجعل فى الأرض رواسى ، وجعل كُلّ شىء موزوناً .

وهو سبحانه قد استهلّ السورة بقوله :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) ﴾ [الحجر]

أى : أنه افتتح السورة بالكلام عن حارس القيم للحركة الإنسانية ؛ ثم تكلَّم عن المادة التى منها الحياة ؛ وبذلك شمل الحديثُ الكلامَ عن المُقوِّم الأساسى للقيم وهو القرآن ، والكلام عن مُقوِّم المادة ؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ ودَلَّلْتُ عليه سابقاً بحديثى عن مُصمِّم أىّ جهاز من الأجهزة الحديثة ؛ حيث يحدد أولاً الغرض منه ؛ ثم يضع جدولاً وبرنامجاً لصيانة كل جهاز من تلك الأجهزة .

وهكذا كان خَلْق الله للإنسان الذى شاء له سبحانه أن يكون خليفته فى الأرض ، ووضع له مُقوِّمات مادة ومُقوِّمات قيم ؛ وجاء بالحديث عن مُقوِّمات القِيَم أولاً ؛ لأنها ستمدّ حياة الإنسان لتكون حياة لا تنتهى ، وهى الحياة فى الدنيا والآخرة .

وهذا القول يُوضِّح لنا أن آدم ليس هو أول من استعمر الأرض ؛ بل كان هناك خَلْق من قَبْل آدم ، فإذا حدَّثنا علماء الجيولوجيا والحفريات عن أن هناك ما يدل على وجود بعض من الكائنات المطمورة تثبت أنه كانت هناك حياة منذ خمسين ألف قرن من الزمان .

فنحن نقول له : إن قولك صحيح .

وحين يسمع البعض قَوْل هؤلاء العلماء يقولون : لا بُدَّ أن تلك الحيوانات كانت موجودة فى زمن آدم عليه السلام ، وهؤلاء يتجاهلون أن الحق سبحانه لم يَقُلْ لنا أن آدم هو أول مَنْ عمَر الأرض ، بل شاء سبحانه أن يخلقنا ويعطينا مهمة الاستخلاف فى الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⑯ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⑰﴾ [فاطر]

أى : أن خَلْق غيرنا أمر وارد ، وكذلك الخَلْق من قبلنا أمرٌ وارد .

ونعلم أن خَلْق آدم قد أخذ لقطات متعددة فى القرآن الكريم ؛ تُؤدِّى فى مجموعها إلى القصة بكل أحداثها وأركانها ، ولم يكُنْ ذلك تكراراً فى القرآن الكريم ، ولكن جاء القرآن بكل لَقْطة فى الموقع المناسب لها ؛ ذلك أنه ليس كتاب تاريخ للبشر ؛ بل كتاب قِيَم ومنهج ، ويريد أن يُؤسِّس فى البشر القيم التى تحميهم وتصونهم من أىِّ انحراف ، ويريد أن يُربِّيَ فيهم المهابة .

وقد تناول الحق سبحانه كيفية خَلْق الإنسان فى الكثير من سُور القرآن : البقرة ؛ الأعراف ؛ الحجر ؛ الإسراء ؛ الكهف ؛ وسورة ص .

قال سبحانه ـ على سبيل المثال ـ فى سورة البقرة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ㉚﴾ [البقرة]

وجاء هذا القول من الله للملائكة ساعة خَلْق الله لآدم ، من قبل أن تبدأ مسألة نزول آدم للأرض .

وقد أخذتْ مسألة خَلْق الإنسان جدلاً طويلاً من الذين يريدون أن يستدركوا على القرآن متسائلين : كيف يقول مرة : إن الإنسان مخلوق من ماء ؛ ومرة من طين ؛ ومرة من صلصال كالفخار ؟

ونقول : إن ذلك كله حديث عن مراحل الخَلْق ، وهو سبحانه أعلم بمَنْ خلق ، كما خلق السماوات والأرض ، ولم يُشهد الحق أحداً من الخلق كيف خلق المخلوقات :

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

ومن رحمته سبحانه أنه ترك في مُحسَّات الحياة وماديتها ما يُثبت صدْقه في غيبيّاته ؛ فإذا قال مرّة : إنه خلق كل شيء من الماء ؛ فهو صادق فيما قال ؛ لأن الماء يُكوِّن أغلبَ الجسد البشرى على سبيل المثال .

وإذا أوضح أنه خلق الإنسان من طين ، فالتراب إذا اختلط بالماء صار طيناً ، وإذا مرّ على الطين وقتٌ صار صلصالاً ، وإذا قال :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ[2] وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

(١) عضداً : أعواناً مساعدين . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] .
(٢) سوّى الشيء تسوية : عدّله وجعله لا عوج فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٣٧] .

وكُلُّ هذا من الأمور الغيبية ؛ التى يشـرحها لنا نقضُها فى الواقع المادى المـلموس ، فحـين يحدث المـوت ـ وهو نَقْض الحيـاة ـ نجد الروح هى أول ما يخرج من الجسم ؛ وكانت هى آخر ما دخل الجسم أثناء الخَلْق .

ومن بعد ذلك تبـدأ الحيوية فى الرحـيل عن الجثمـان ؛ فيتـحول الجثـمان إلى مـا يشبـه الصَّلْصال ؛ ثم يتبـخّر المـاء من الجثـمان ؛ ليصير من بعد ذلك تراباً .

وهكذا نشهد فى الموت ـ نقض الحياة ـ كيفية بَدْء مراحل الخَلْق وهى مـعكوسـة ؛ فالمـاء أولاً ثم التـراب ؛ ثم الطين ؛ ثم الصلصـال الذى يشبه الحمأ المسنون ؛ ثم نَفْخ الروح .

وقد صـدق الحق سبحـانه حين أوضح لنا فى النقـيض المادى ، ما أبلغنا عنه فى عالم الغيب .

وعلى ذلك ـ أيضاً ـ نجد أن الذين يضعون التكهنات بأن الشمس خُلِقَتْ قـبل الأرض ؛ وكـانت الأرض جـزءاً من الشـمس ثم انفـصلت عنهـا ؛ على هؤلاء أن يعلموا أن مـا يقـولونه هو أمر لم يشـاهدوه ، وهى أمور لا يمـكن أن يدرسها أحـد فى معـمل تجريبى ؛ وقـد قال القرآن عن أهل هذا اللغو :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

وهم قـد أعـانوا على تأكيـد إعـجازيـة القـرآن الذى أسـمـاهُم المُضلِّين ؛ لأنهم يغوون الناس عن الحق إلى الباطل .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾

ونعلم أن كلمة (السَّمُوم) هى اللهب الذى لا دُخَانَ له ، ويُسمّونه « السَّموم » لأنه يتلصَّص فى الدخول إلى مسَامِّ الإنسان .

وهكذا نرى أن للعنصر تأثيراً فى مُقوِّمات حياة الكائنات ، فالمخلوق من طين له صفات الطينية ، والمخلوق من نار له صفات النارية ؛ ولذلك كان قانون الجن أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنْس .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ(١) مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نعلم أن قانون خَلْق الجن من عنصر النار التى لا لهبَ لها يوضح لنا أن له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان .

ذلك أن مهمته فى الحياة تختلف عن مهمة الإنسان ، ولا تصنع له خيريةً أو أفضلية ، لأن المهام حين تتعدد فى الأشياء ؛ تمنع المقارنة بين الكائنات .

والمَثلُ على ذلك هو غلبة مَنْ عنده علْم بالكتاب على عفريت الجن ؛ حين سأل سليمان عليه السلام عمَّن يأتيه بعرش بلقيس :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا(٢) قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل]

---

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم ٢/ ٩٨].

(٢) العرش : سرير الملك . ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٦٣) : « كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مُستراً بالديباج والحرير » .

وقال عفريت من الجن : إنه قادر على أن يأتي بالعرش قبل أن يقومَ سليمان من مُقَامه ، ولكن مَنْ عنده علْم بالكتاب قال : إنه قادر أنْ يأتيَ بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ طَرْف سليمان ؛ وهكذا غلب مَنْ عنده علم بالكتاب قدرة عفريت الجن[1] .

وقد قصَّ علينا الحق سبحانه هذا في كتابه الكريم ، فقال :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾

وعرفنا في مواقع متفرقة من خواطرنا كيف نفهم هذه الآية . ونعلم أن البشر في زماننا حين يريدون صُنْع تمثال ما ، فَهُم يَخْلطون التراب بالماء ليصير طيناً ؛ ثم يتركونه إلى أنْ يختمرَ ، ويصيرَ كالصَّلْصَال ، ومن بعد ذلك يُشكل المثَّالُ ملامح مَنْ يُريد أن يصنع له تمثالاً .

والتماثيل تكون على هيئة واحدة ، ولا قدرةَ لها ، عكْس الإنسان المخلوق بيد الله ، والذي يملك بفعل النفْخ فيه من روح الله ما لاَ

(١) عفريت الجن : أقوى الجن . والعفريت : النافذ في الأمور مع دهاء . [المعجم الوجيز - مادة : عفرت] .

يملكه أيُّ كائن صنعتْه مهارة الإنسان ؛ ذلك أن إعجازَ وطلاقةَ قدرةِ الخالق لا يمكن أن تستوى مع قدرة المخلوق المحدودة .

وهناك حديث يقول فيه ﷺ : « خلق الله عز وجل آدم على صورته ، ستون ذراعاً »[1] .

واختلف العلماء في مرجع الضمير في هذا الحديث ؛ أيعود إلى صورة آدم ؟ أم يعود إلى آدم ؟

فمن العلماء من قال : إن الضمير يعود إلى آدم ؛ بمعنى أن الله لم يخلقه طفلاً ، ثم كبر ؛ بل خلقه على الصورة الناضجة ؛ وتلفَّت آدم فوجد نفسه على تلك الصورة الناضجة ؛ وأنه لم يكُنْ موجوداً من قبل ذلك بساعة ؛ لذلك تلفَّت إلى المُوجِد له .

والذين قالوا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان على صورته ، وأن الضمير يعود إلى الله ؛ فذلك لأن الحق قد جعل الإنسان خليفةً له فى الأرض ؛ وأعطاه من قدرته قدرةً ؛ ومن علْمه علماً ؛ ومن حكمته حكمة ، ومن قاهريته قهراً .

ولذلك يقول ﷺ : « تخلَّقوا بأخلاق الله » .

فخلق آدم داخلٌ فى كينونته . يقول الحق :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٤١) قال النووى فى شرحه لهذا الحديث : « هذه الرواية ظاهرة فى أن الضمير فى صورته عائد إلى آدم ، وأن المراد أنه خُلق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض وتوفى عليها وهى طوله ستون ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته وكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير » .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ [آل عمران]

وأمام الكينونة ينتفى التعليل ، ولم يبق إلا الإيمان بالخالق .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾[1]

والتسوية تعنى جَعْل الشيء صالحاً للمهمة التى تُراد له . وشاء سبحانه أن يُسوِّىَ الإنسان فى صورة تسمح لنفخ الروح فيه . والنفخ من روح الله لا يعنى أن النفخ قد تَمَّ بدفع الحياة عن طريق الهواء فى فَمِ آدم ، ولكن الأمر تمثيلٌ لانتشار الروح فى جميع أجزاء الجسد .

وقد اختلف العلماء فى تعريف الروح ، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض فى ذلك الأمر ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) « النفخ : إجراء الريح فى الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن ، من ذلك الجسم ، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خَلْقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً » . قاله القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٧٤٧) .